37 - السيدة درّة بنت أبي لهب

عداوة أمها وأبيها للنبي ﷺ

اسمها دُرَّةُ، والدها عبد العُزَّى بن عبد المطلب، الملقَّب بأبي لهب، كان عم النبي ﷺ، وأشد الناس عداوة له وإيذاء، وكان يتنافس مع أبي جهل في هذا المجال، فيمشي وراء النبي ﷺ فإذا وجد أُناساً ووقف يدعوهم إلى دين الله، كان أبو لهب يقول لهم في خلفه: لا تصدِّقوه.

لقد اختار أبو لهب لنفسه ناراً وسعيراً، وأبى جنة وحريراً، وكان لفرط جهله، وسقم فكره يقول: إن كان ما يقول ابن أخي حقّاً، فإني أفتدي نفسي يوم القيامة من العذاب بمالي وولدي، ولكن هيهات!! لما يمنِّي نفسه به، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء: 88، 89].

كانت أمام أبي لهب طريقان، **الأولى**: وعرةٌ، شائكةٌ مخوفةٌ؛ **والثانية**: سهلةٌ، ممهَّدةٌ، آمنةٌ؛ فرضي بالأولى فسلكها حتى منتهاها، وأعرض عن الثانية فحُرم خيرها ونعماها، قال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: 17].

وكانت زوجه أم جميل، وتدعى أروى بنت حرب بن أمية، وهي أخت أبي سفيان بن حرب، عوناً لزوجها في الحقد على رسول الله ﷺ، ومناصبته العداء، دون خجل ولا حياء.

ونظراً لسوء طبعها، وفساد طويَّتها فقد منحها الله لقباً يليق بها، فدعاها: «حمَّالة الحطب»، لأنها كانت تحمل حزم الشوك والحسك وتلقيها على طريق النبي ﷺ تريد أن تؤذيه، دون أن تدري أن الله خيرٌ حافظاً

لنبيه ﷺ، وهو أرحم الراحمين به، وبعباده المؤمنين؛ وأما المشركون والكافرون والقاسطون فكانوا لجهنم حطباً.

وكانت أم جميل تدخل البيوت في مكة لتحذِّر النسوة من هذا الدين الذي يدعو إليه رسول الله ﷺ، وتوصيهنَّ بالتمسُّك بدين الآباء والأجداد حفظاً لعهدهم، ووفاء لهم.

ووسط هذا الجو المحموم، والممتلىء بالحقد، والكراهية، والبغضاء لرسول الله ﷺ عاشت دُرَّة.

ولقد أبى علاَّم الغيوب، مقلِّب القلوب أن يوجِّه قلب درة إلا إليه، وأن يجعل اعتمادها إلا عليه، فزيَّن إليها الإسلام والإيمان، وكرَّه لها الشرك والعصيان.

تزوَّجت درة بنت أبي لهب في الجاهلية من الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وقد أنجبت له ثلاثة ذكور، هم: عقبة، والوليد، وأبو مسلم؛ وكان بين مشركي قريش يوم خرجت إلى بدرٍ، وأمسى بين صرعاها، دفين القليب.

ولما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: 214]، صدع رسول الله ﷺ بالأمر، ودعا قريشاً إلى الله، قال ابن عباس رضي الله عنهما صَعِدَ رسول الله ﷺ ذات يوم الصفا، فقال: «**يَا صَبَاحَاهُ!!**»، فاجتمعت إليه قريش فقالوا: ما لك يا محمد؟ قال: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ العَدُوَّ مُصْبِحُكُمْ أَوْ مُمْسِيكُمْ، أَمَا كُنْتُمْ تُصَدِّقُونَنِي؟**»، فقالوا: بلى، ما أنت عندنا بمتَّهم، بل الصادق الأمين قال: «**فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**»، فقال له عمه أبو لهب: تبّاً لك سائر اليوم، ألهذا دعوتنا - أو: جمعتنا-؟!! فأنزل الله عز وجل: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾ [المسد: 1-5].

وصُعق أبو لهب، وجُنَّ جنون امرأته أم جميل حين سمعا هذه السورة، وقد روى ابن إسحاق: أن أم جميل حمَّالة الحطب حين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن، أتت رسول الله ﷺ وهو جالسٌ في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه وفي يدها فِهْرٌ من حجارة[1].

فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله ﷺ فلم ترَ إلاَّ أبا بكرٍ، فقالت: يا أبا بكر، أين صاحبك؟ فقد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدتُه لضربتُ بهذا الفِهْرِ فاه، أما والله إني لشاعرة، ثم انصرفت، فقال أبو بكرٍ: يا رسول الله، ما لها؟ أما تراها رأتك؟، فقال: «**مَا رَأَتْنِي، لَقَدْ أَخَذَ الله بِبَصَرِهَا عَنِّي**».

ثم بدأ لأم جميل أن أشد ما يؤذى به رسول الله ﷺ هو ردُّ ابنتيه رقية، وأم كلثوم رضي الله عنهما إليه، فأخبرت زوجها أبا لهبٍ بذلك واتَّفقا أن يأمرا ابنيهما عتبة، وعُتيبة بطلاقهما، ولِمَا أراد الله بابنتي رسول الله ﷺ من الخير وبخطيبيهما من الهوان، أخرجهما من تحت أيديهما قبل أن يدخلا بهما، وردَّهما كريمتين إلى بيت أبيهما.

إسلامها وهجرتها

وخرجت درة بعد مقتل زوجها مهاجرة إلى الله ورسوله ﷺ في المدينة، وتزوَّجت فيها من دحية الكلبي الذي كان جبريل عليه السلام يأتي النبي ﷺ بصورته، وعاشت بين نساء الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ جميعاً.

ولكن بعض تلك النسوة كُنَّ يُعَيِّرْنَهَا بأبيها، فهذه تقول لها: أنت ابنة عدوِّ الله، وتلك تقول لها: لقد قال الله تعالى في أبيك وأمك: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ [المسد: 1-5] ولن تفيدك هجرتك شيئاً.

---

(1) الفِهْرُ: قطعةٌ من الحجارة تملأ الكفَّ.

وعزَّ على درة المؤمنة، المهاجرة، الصادقة أن تسمع ذلك منهنَّ، فقرَّرت أن تشكوهن إلى النبي ﷺ، ولما دخلت على رسول الله ﷺ وأخبرته بما قالت النسوة لها هدَّأ من روعها، ثم قام إلى صلاة الظهر، فلما صلَّى بالناس صَعِدَ المنبر ثم قال: «**أَيُّهَا النَّاسُ مَا لِي أُوذَى فِي أَهْلِي؟ فَوَاللهِ إِنَّ شَفَاعَتِي لَتَنَالُ قَرَابَتِي، حَتَّى إِنَّ صُدَاءَ وَحَكَماً وَسَلَماً لَتَنَالُهَا يَوْمَ القِيَامَةِ**»، وقال صاحب «درُّ السَّحابة»: إن رسول الله ﷺ قال لدرة: «**أَغْضَبَ اللهَ مَنْ أَغْضَبَكِ**»[1].

مكانتها من رسول الله

وقد يسَّرت قرابة درة بنت أبي لهب من رسول الله ﷺ لها أن تكثر التردُّد لزيارته في بيت عائشة رضي الله عنها فوجدت فرصتها لتعبَّ من الهدي النبوي، وأحاديث رسول الله ﷺ قدراً مكَّنها من أن تحتلَّ مقعداً لها بين رواة الحديث الثقات، وقد ساعدها على ذلك عقلها الراجح، وذكاؤها الفذُّ، وحسن تلقِّيها لِمَا يُروى على مسامعها، وذكرت بعض كتب السنة جانباً مما روته أحاديث.

وكانت درة فصيحة بليغة، وقد استطاعت أن تتَّخذ لها مقعداً بين شواعر النساء المجيدات، وذلك من أيام الجاهلية.

وإذا أردنا أن نتعرَّف على مكانها درة بنت أبي لهب لدى رسول الله ﷺ، فها هي درة تحدثنا بنفسها عما حدث في إحدى زياراتها للسيدة عائشة رضي الله عنها قالت: دخل رسول الله ﷺ، فقال لها: «**ائْتُونِي بِوَضُوءٍ**»، فركضت عائشة، وسبقتُها، فأخذتُ منها الكوز، وتوضَّأ رسول الله ﷺ، وبعد أن أتمَّ وضوءه ﷺ رفع عينيه إليَّ، وقال لي: «**أَنْتِ مِنِّي، وَأَنَا مِنْكِ**».

فهل علمتم أية منزلةٍ بلغتها تلك المؤمنة؟ وإلى أين وصل بها إيمانها؟ وإلى أي دَرَكٍ نزل أبوها؟!!

---

(1) در السحابة (542).

شتَّان! شتَّان بين من آمن فارتقى، ومن كفر فهوى به كفره إلى وادٍ في جهنم سحيق!! رحم الله درة، وأحسن نزلها، ورضي عنها.